التأثيرات الدينية القرطاجية على النوميد

أ/ قفاف البشير، جامعة ابن خلدون تيارت

بعد انتقال الفينيقيين من الساحل الكنعاني إلى بلاد المغرب القديم وتأسيس قرطاجة، اصطحبوا معهم عاداتهم وتقاليدهم وديانتهم التي كان لها تأثير واضح على الديانة المحلية النوميدية، فظهرت أسماء جديدة للإلهة والطقوس الدينية وحتي كيفية العبادة، ونجد إن هذا التأثير اخذ أشكال عدة، فإما ان ظهرت معبودات جديدة وإما اندمجت الديانة الوافدة مع المحلية وفيه من المظاهر الدينية التي بقيت على حالها ولكن تطورت لتتناسب مع الظروف الجديدة .

1- التأثيرات الدينية الداخلية على النوميد:

كان للبربر ديانتهم التي لا تختلف عن ديانات الأمم الوثنية إلا من حيث تفاصيل العبادات وتماثيل المعبودات التي هي من توابع اللغات، وبنزول الفينيقيين بسواحل بلاد البربر وإقامتهم لمحطات تجارية منذ نهاية الألف الثانية قبل الميلاد لم يلق معارضة من طرف السكان المحليين، لما تأسست مدينة قرطاجة 814 قبل الميلاد ليؤكد طبيعة العلاقات السلمية بينهما لمدة طويلة.[1]

ولما جاورهم القرطاجيون تأثروا بهم في عقيدتهم وقلدوهم في كثير من طرائق عبادتهم وغيروا بعض ما ورثوه عن أسلافهم.[2]

وقد بدأ تأثر كبير من طرف البربر للقرطاجيين في كثير من المجالات والتي ظهرت في الأضرحة، وفي طريقة الاعتقاد أيضا، كما يشير أيضا أن في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد إلى وجود ثلاث ممالك بربرية مستقلة وهي مملكة "قرطاجة" و "نوميديا" بشطريها "الماصيل" و"الماصيصل" ومملكة موريتانيا.[3]

إذ يمثل الدخول الفينيقي إلى شمال إفريقيا نقطة تحول في المعتقدات الليبية إذ طرأ عليها تطورا واضحا وتعرضه للتأثر بالديانة الكنعانية الشرقية فاندمجت الديانة الفينيقية في الديانة الليبية .[4]

فكأن هذه الحضارة القرطاجية قد تجنست رغم أصولها الشرقية البعيدة وصارت في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد تركيبا للعناصر الشرقية وللعناصر البربرية المتعددة مثل "بعل حمون" أهم آلهتها نتيجة انضمام "بعل" إلى "حمون" لهذا فقد تكونت في نوميديا حضارة قرطاجية بربرية حقيقية دامت في تطورها زمنا بعيدا بعد سقوط قرطاجة.[5]

هذه الديانة التي كانت متمكنة من نفوس أهلها متحكمة في سلوكاتهم المختلفة مسيطرة على أفكارهم ونظرتهم للحياة وقد جسدت الديانة الوثنية القرطاجية ظاهرة ميل الليبيين إلى التعلق بالسماء والأجرام السماوية التي كانت معروفة عندهم من قبل، وربما يفسر تغلغل الديانة القرطاجية في أوساط الأهالي لكونها استجابت إلى هذه النزعة.[6]، وتغلغلت هذه الديانة الشرقية في مناطق لم تكن تابعة لقرطاجة من الناحية السياسية بطرق سلمية وغير مباشرة، حيث أخذ النوميديون المعتقدات القرطاجية

وترجموها حسب أفكارهم ثم ضموها لمعتقداتهم وتصوراتهم القديمة.[7]، فقد عرف هذا التأثير القرطاجي مدة أكثر من عشر قرون، أي في مدة أكثر بمرتين من المدة التي بقيت بها[8].

ويتجلى تأثير المعتقدات في النوميديين من خلال الآلهة القرطاجية التي عبدها النوميديين وممارستهم الطقوس والشعائر الدينية القرطاجية ،وكذلك في طرق دفن موتاهم .[9]

حيث ظلت العادات القرطاجية القديمة والطقوس الدينية كما هي تماما، وعلى وجه الخصوص في المناطق الداخلية، وفي القرى التي كانت أقل قابلية لتأثير الحضارة الرومانية الجديدة ويعود سبب هذا التأثير إلى خبرة النوميديين الذين خدموا في جيش قرطاجة.[10]

وذلك من خلال الامتزاج الواضح بين عدد من العناصر الحضارية في ذلك المجتمع إلى جانب العنصر القرطاجي الفينيقي، وجد العنصر الليبي المحلي والعنصر اليوناني المتداخل في بعض مجالات المجتمع القرطاجي حيث ساهم هذا الامتزاج إلى انتقال النوميديين من الانعزالية نسبيا إلى مجتمع متطور له فاعلية في تاريخ منطقة البحر الأبيض المتوسط.[11]

2- الآلهة القرطاجية في نوميديا:

تبنى النوميديون عبادة "بعل حمون" القرطاجي وانتشرت عبادته في عهد "ماسينيسا" وما بعده حيث ظهر اختلاف كبير حول أصوله فمنهم من يرى أنه إفريقي والبعض يرى أنه قرطاجي، كما تبنو عبادة الإلهة "تانيت" التي أصبحت أهم المعبودات عندهم كما اهتم ملوك النوميديون بالمعتقدات الدينية القرطاجية الخاصة بالزراعة، فهي آلهة قرطاجية وكما يبدو أنها نتاج اندماج المعبودات الفينيقية "إلات" و"عشتروت" ولها خصائص سماوية فهي حامية المحاصيل الزراعية.[12]

ومن مظاهر التأثر بالديانة الشرقية أن الأهالي تسموا بأسماء دينية منسوبة إلى الآلهة مثل "مستنبعل"[13] و"أذر بعل" و "بد ملقرط"، وفي إنشاء الكثير من المعابد الآلهية المخصصة لعبادة بعل حمون وتانيت كالتي أنشأت لبعل حمون على أبواب كل مدينة مهمة منها معبدة الموجود على جانب القصر الملكي "بسيرتا" قسنطينة هذه المدينة التي عثر فيها على مواقع أثرية بونيقية كثيرة منها معبد "الحفرة"[14]

وأما عن الأضرحة الملكية والجدير بالذكر أن هندسة "المدغاسن" وعمارته تشكل مزيجا من العاصر القرطاجية وإغريقية ومصرية وتقاليد بربرية، وقبر الرومية يرى "جوداس" من جهة أخرى أن عبارة قبر الرومية التي استعملها العرب بعد الفتح بلاد المغرب أصلها فينيقي وتعني القبر الملكي"[15]

وأما عن الأضرحة البرجية أو شبيهة بالأبراج فقد شيدت في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، ويبدو أن هذا النوع من المدافن غريب عن تقاليد البنايات الجنائزية القديمة، كما أن هناك عدة مؤشرات تدل على أن أصول هذا النوع شرقية، فمظهره الخارجي وعناصره الهندسية تشبه إلى حد بعيد الأضرحة المنتشرة عبر حوض البحر المتوسط في فنيقا وسوريا مثل ضريح القديس.[16]

وأن هذا التأثير الشرقي ظهر خلال الوجود القرطاجي على حوض البحر المتوسط ثم تضاعفت خلال حكم الممالك البربرية في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد وبقي هذا النوع من العمارة خلال الفترة الرومانية.[17]

إضافة إلى ضريح "الخروب" الذي يرى البعض أنه مستوحى من التأثير القرطاجي، الذي يظهر على جبهات البناء التي استعملها القرطاجيون في أواخر عهدهم أو التجوفية أو الطنف المصري الشائع عند القرطاجيين.[18]

وما تذكره أيضا الطفاية بسوسة التي وجد بها الكثير من النصب، والتي يمكن أن تؤرخ بزمن "ماسينيسا" وفي فترات لاحقة عرفت نوميديا إنشاء الكثير من المعابد المخصصة لعبادة بعل حمون وتانيت وقد دلت البقايا الأثرية التي وجدت في أماكن مختلفة من نوميديا، تونس الجزائر منها النفوذ التي تحمل واجهات المعابد البونيقية وصور الآلهة البونيقية على النقود النوميدية والبقايا الأثرية التي وجدت في المعابد كمعبد "حدرموت" و"معبد الحفرة" بسيرتا التي تعود إلى فترة "ماسينسا" و"مسيبسا"، حيث وجدت أدوات مشابهة للأدوات القرطاجية إضافة إلى النقوش التي وجدت في نوميديا، والتي تمثل إهداءات ودعوات وصلوات للآلهة القرطاجية خاصة بعل حمون وتانيت، حيث استمرت عبادة هذين الإلهين أيضا خلال العهد الروماني،حيث يرى" Le CLAY.M "أن معظم المعابد التي خصصت للإله الروماني "ساتورن" إنما كانت مخصصة في الأصل ل"بعل حمون"، ولكن الإلهين الكبيرين أخذا اسمين جديدين هما "ساتورن وكايليستيس" وتدل الرموز المنتشرة للمعبودين بعل حمون و تانيت في المدن النوميدية منها قصر لمطة و قسنطينة على أن النوميديين اعتقدوا فيهما وعبدوهما حيث عثر على كثير من الشواهد الأثرية من نقوش ورموز لكليهما في مختلف المدن النوميدية من نصب كتب عليها "إلى المولى بعل وإلى الربة تانيت بيني بعل"[19]

3- **الطقوس الدينية والجنائزية القرطاجية في نوميديا:**

أ-الطقوس الدينية القرطاجية في نوميديا:

إن من أهم الطقوس الدينية التي ظلت خلال عهد الممالك البربرية هي ممارسة عادة تقديم الضحايا البشرية التي كانت موجودة في مدينة كيرتا على عهد ماسينيسا على الطريقة القرطاجية.[20]

حيث عثر على كتابات بكيرتا وضواحيها أكدت أن النوميد كانوا يضحون بأولادهم إلى الإلهة "مولكمور" وأشارت النصوص إلى هذا النوع من الأضحية في قرطاجة إلى الإله بعل حمون أكدت الاكتشافات الأثرية من خلال وجود بقايا عظمية للأطفال والنقيشة عن هذه التقاليد، كما أشارت النصوص البونيقية إلى التضحية بالأطفال من أجل الملك والخاص بعبادة تانيت.[21]

وتتم هذه التضحية ليلا في الهواء الطلق بحضور جمع غفير من الناس يلتفون حول تمثال الإله يترقبون عملية الأضحية ويصاحب الاحتفال الموسيقيون والراقصون ويستلمها الكاهن ثم يتقدم بها نحو المذبح، وسرعان ما يذبح الضحية بشكل غامض ويضعها بين يدي التمثال لتنزلق نحو اللهب المقدس، أما على

الشواهد الأثرية المكتشفة لا تقدم لنا صورة واضحة ودقيقة عن تلك الطقوس والتراتيل المصاحبة للاحتفالات الدينية.[22]

ما يمكننا في محاولة إعادة بناء طرق إجراء تلك الطقوس هذا الفراغ الذي جعل المؤرخين يحاولون إظهار بشاعة الحضارة البونيقية.[23]

إضافة أن عدم تدخل الرومان في عادات وتقاليد سكان شمال إفريقيا هذه الفترة سوى تحريم عادة تقديم الضحايا البشرية، أما النظم الدينية بقيت كما هي.[24]

ولقد ظهر التأثير القرطاجي على النوميد كما ذكرنا آنفا في التضحية البشرية من خلال الآثار التي أكدت لنا ذلك حتى لا يتسرب إلينا الشك إطلاقا من خلال وجود مسلتين وجدتا بالحفرة أن النوميد كانوا يمارسون الأضحيات الآدمية أبرزها صورة لطفل معوق قدمه أهله كقربان للإله "ملك" في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، وبهذا نلاحظ أن هذه التقاليد دخلت نوميديا عن طريق قرطاجة وهو تقليد قديم عند الكنعانيين والشعوب السامية الشرقية، كما لوحظ أيضا أن تضحية الأطفال قد استبدلت بحيوانات وهذا في كل من قرطاجة منذ نهاية القرن الأول قبل الميلاد وفي "دوجا" منذ القرن الثاني قبل الميلاد كما لوحظ أيضا بالقرب النوميدي حيث يتم استبدال الأطفال عند تقديمهم إلى المحرقة بحيوان.[25]

وجدت في نوميديا موائد القربان وبقايا إحراق الضحايا البديلة كطقس "الملشومور" حيث بقي إلى فترة متقدمة من العهد الروماني.[26]

وعلى الرغم مما تتطلبه المعتقدات الدينية الشرقية القرطاجية من تكاليف باهضة الثمن كالتضحية البشرية إلا أنها وجدت استجابة في نفوس الأهالي فاعتقوها متحملين تكلفة شعائرها الباهضة.[27]

وقد أنتج تبني النوميديين للمعتقدات الدينية القرطاجية صعوبة في التفريق بين الأقاليم القرطاجية والمواقع النوميدية حيث لم يكن هناك فرق بينهما في الديانة فقد حدث اندماج بين الديانة القرطاجية والليبية فاندمج الكبش المقدس للأهالي مع بعل الفينيقي – القرطاجي وقد استمر الأهالي يقدمون الأضاحي البشرية للإله بعل حمون وتانيت رغم إصدار مجلس الشيوخ الروماني قوانين تمنع الأضحية البشرية فقط دون الحيوانية[28]، حيث استمر الناس بالتضحية البشرية إلى غاية نهاية القرن الأول بعد المسيح.[29]

وفي الأخير نقول أن تزاوج القرطاجيين مع البربر السكان المحليين أصبح شيئا متميزا بحضارة رفيعة، وقد احتفظ هذا الشعب بتلك الحضارة حتى فيما بعد خراب العاصمة، ولقد مهد السبيل الوحيد للإسلام وللغة العربية إفريقيا، كما عرف انتشار لغة سامية الطابع.[30]

ب - الطقوس الجنائزية القرطاجية في نوميديا:

تفيد الشواهد الأثرية التي وجدت في مواقع مختلفة من الجزائر بأن النوميديين قد تأثروا بطرق الدفن القرطاجية إلا أن هناك اختلاف طفيف في عمق السراديب والوضعيات التي وجد عليها الموتى.[31]

يجدر بنا أن نشير أيضا أن هذه الشعائر لم تكن من خصوصيات السكان المحليين بل مارستها كذلك الشعوب الأخرى القديمة لهم إلى جانب لا يمكن أن نتجاهل تأثير الحضارات القديمة على الحياة الدينية في المغرب أين تجسد اقتباس البربر لبعض العادات الجنائزية بفضل احتكاكهم بالأمم المتحضرة وساعدهم في ذلك التواجد الفينيقي في العهد القرطاجي خاصة.[32]

فقد كشفت الحفريات على كثير من القبور ذات الطابع القرطاجي التي تعود معظمها إلى فترة متأخرة من تاريخ قرطاجة، أما بعضها فيعود إلى قرطاجة في العهد الروماني منها ما وجد في بونة-سيرتا.[33]

وتمثل القبور على العموم في حفرة أو بئر أو سرداب وتكون الحفرة أكثر اتساعا من جهة الرأس والكتفين وبذلك تأخذ العام للجسم عموما عند القرطاجيين.[34]

أما البئر عند النوميديين فهي أكثر اتساعا من مثيلاتها في قرطاجة ولكن،ها أقل عمقا حيث لا يزيد عمقها عن ثلاثة أمتار مثل القبور التي وجدت في بئر قوراية غرب الجزائر العاصمة، وهذا البئر مزود بسلالم للوصول نحو أسفل البئر، ونظرا لقلة العمق تعذر الدفن في طوابق كما في قرطاجة ولكن لا يمكن أن تجد حفرا في الجوانب احتوت على الموتى، ولم تكن السراديب منحوتة بنفس الشكل الذي كانت تنحت به السراديب القرطاجية ،ففي سوسة مثلا نجد الشكل الدائري ما يعني أن الميت لا يكون ممددا ولكن في العادة ما تكون غرفة الدفن مستطيلة وعادة ما تكون مداخل القبور مغطاة ببلاطات وفي بعض الأحيان يكون القبر محاط بحجارة ما يذكرا بـ "التيميلوس" ووضع النوميديون على قبورهم شواهد صخرية مثل القرطاجيين تماما.[35]

كان الميت ممددا وملقى على ظهره ويداه مضمومتان على الصدر، وكان رأس الميت يوضع في الداخل أما الأرجل ففي المدخل، أما الأرجل ففي المدخل أما التوجيه فيختلف ونتساءل عن جدوى وجود دبوس بالقرب من العنق أو الكتفين يفسر ذلك بكون الجثة كانت ملفوفة في قطعة من القماش الذي تأكل مع مرور الزمن فلم يبق له أثر، وبقيت الدبابيس المعدنية الأكثر مقاومة للعوامل الطبيعية.[36]

ووجد في نوميديا قبور ذات طابع ممتزج قرطاجي وليبي منها التي أخذ القبر فيها شكلا دائريا وجدت أرجل الميت مطوية وتم تلوين الجثة باللون الأحمر وهي طقوس ليبية قديمة.[37]

إضافة إلى عادة الحرق عرفها النوميديون الشرقيون في فترة متأخرة بواسطة الارستقراطية القرطاجية غير أن اكتشافات الأثرية في المغرب أثبتت قدمها عد النوميديين الغربيين والموريين وبالتالي من المحتمل جدا أنها استعملت في نوميديا الشرقية منذ القرن الرابع تحت تأثير المغاربة الغربيون.[38]وضع رماد الجثث في ضريح الخروب ويحتمل كذلك في سيقا.[39]

وازدادت القبور التي احتوت على عظام محروقة بعد القرن الثالث وزود هؤلاء الموتى بأثاث جنائزي ومنهم من يرى عكس العادة في قرطاجة إذا لم يكن الموتى المحرقين مزودون بأثاث جنائزي.[40]

ومهم من يرى الطلاء الأحمر "القرميد" هو تقليد شرقي ويستعمل في طلاء الجماجم وأحيانا التوابيت الخشبية فقد عرف هذا الطلاء انتشار واسع بمقابر الساحل التونسي سواء كانت القبور ذات تصور بوني أو ليبي.[41]

وتجدر الإشارة أن ضريح "الخروب" على عكس الأضرحة الأخرى يزخر بأثاث جنائزي متعدد ومتنوع اكتشف لأول مرة م خلال حفريات 1915-1916 بعضه في حالة جيدة والبعض الآخر متضرر ويتكون في غالب الأحيان من أسلحة دفاعية وهجومية زينة متنوعة وجرا وأواني فضية.[42]

وبالقرب من الموتى وجد الأثاث الجنائزي منها ما هو خاص بالميت كالخاتم وأدوات صنعت من أجله بعد وفاته ليستعين بها في حياته الأخرى، ويتمثل الأثاث الجنائزي في الفخاريات والمزهريات وأباريق ويضاف إليه مواد خزفية أخرى.[43]

ومواد زجاجية كالمصابيح والحواجل ومواد معدنية كالمرايا والدبابيس والذهب ومواد من العاج كالمشط وكثير من التماثيل الصغيرة للألهة ولأشخاص كما عثر في بعض القبور على بقايا عظام حيوانية وبقايا نباتية كالفواكه.[44]

ووجود هذه المواد دليل على اعتقاد النوميديين القدماء في الحياة الأخرى حيث كان الميت يزود بكل ما كان يستعمله في حياته الأخرى، ويعتقد أن مراسيم الدفن كانت تتم في جو م الخشوع والصلوات التي كان يقوم بها الكهان ولكن لم تقدم لنا المصادر المكتوبة والأثرية المعلومات الكافية لتناول ذلك بشيء من التفصيل، والتأكيد وتؤكد الشواهد الأثرية التي وجدت في مناطق مختلفة من نوميديا قد تأثروا بالقرطاجيين ببناء الأضرحة الضخمة على أبواب مدنهم التي يطلق عليها "لموزولي" Mousolee" الضريح الملكي دوقا والمدغاسن Medracen.[45]

حيث يلاحظ الدارس من خلال المخلفات الأثرية المتمثلة في الحجارة المحيطة بالمعبد أن له طابعا نوميديا ويظهر فيه تأثير بونيقي إغريقي خاصة في الطابع الإغريقي الإفريز الفينيقي.[46]

ويظهر ضريح الصومعة بقسنطينة Soumaa Du Khroub ويظهر في خصائصه هذا المعبد امتزاج بونيقي وإغريقي وحسب المؤرخين بأنه شيد على يد المعماريين القرطاجيين.[47]

والبعض الأخر عكس ذلك يرون أن الأضرحة هي تطور للبازينة المحلية ويعتقدون الفينيقيين قد نقلوا هذا النوع من بلادهم من الأضرحة إلى قرطاجة ثم نقلت هذه العادة عن طريق الاستقراطية القرطاجية إلى الملوك النوميديين وهو بناء على شكل مربع ينتهي بهرم، أما معبد دوجا Mausolée de Dougga وجدت به نصوص بالكتابة اللوبية والبونيقية.[48]

فقد احتوى معبد دوقة على نقشية أثرية حيث أن زيلاس، جد ماسينيسا الذي ورد اسمه في هذه النقشية كان يحمل لقب السبط بدلا من ملك مما يدل على مدى التأثير القرطاجي على حكام المدن النوميدية، في ذلك الوقت المتقدم من التاريخ، والنص اللوبي الذي احتوى على صفة إقليد التي تعني هي الأخرى الحاكم العسكري.[49]

أما المعبد الملكي الموريتاني الذي عرف باسم قبر الرومية فهو مزيج من تأثير اليوناني القرطاجي وتمثل تأثير القرطاجيين في الأعمدة التي بها نقشان فتسمى "أصولا أتيكية" وهي منتشرة في رسومات المسلات الفينيقية للقرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.[50]

والجدير بالذكر أن معظم النقائش التي وجدت في سيرتا كتب عليها بالبونية الحديثة اسم "بولقارت" و "حانو" ويبدو أهما سبطين فكل هذه اللقى الأثرية ذات تأثير بوني قد أعطت صورة واضحة لتأثير القرطاجيين على النوميد إلى حد كبير.[51]

في مجمل القول لقد استطاعت الممالك النوميدية بفضل احتكاكهم بالقرطاجيين خاصة، وبالشعوب الأخرى من أحداث تفاعل حضاري وهذا ما أكدته الشواهد الأثرية في أكثر من مرة بين أنظمتهم المحلية وبين التأثير الفينيقي البونيقي ساعدهم على خلق مجتمع متطور إلى حد بعيد، وبالرغم من استمرار التفاعل والتأثر الفعلي بالحضارات وخاصة القرطاجية احتفظوا ببعض المقومات الحضارية المحلية.[52]

وما يشد انتباهنا فقد عمت عبادة الآلهة القرطاجية عند النوميد بعل حامون وتانيت "بي بعل" وقد كانت عبادة الإله بعل حامون وجدت في نوميديا أرض ملائمة لازدهارها ولعل ما يدعم ذلك معبد الحفرة، حيث رافقته في النقوش الالهة تانيت إضافة إلى آلهة أخرى مثل "بعل إدير" و"ملقرت" حيث مثلت النصب التي كشفت بسيرتا بكل معطياتها وثائق أساسية للديانة النوميدية البونية ولم تزدهر ثقافة النوميديين إلا بعد أن امتزجت بالثقافة المحلية في شكلها الحضاري.[53]

لقد وجدت البصمة القرطاجية على الشعب النوميدي وخاصة في المناطق الداخلية، وذلك من المدغاسن le medhcen حيث تشهد تأثر نوميد بالهندسة المعمارية البونيقية، حيث وجدت آثار واضحة بمدى تأثر النوميد بالقرطاجيين في الجانب الديني في كودية الزعرور koodiat- Zaror شرق القديسية "صالصا" Salasa حيث وجدت بها مساحة صغيرة للتضحية ومنحوتات نذرية خالية من الكتابة.[54]

4 - **أصول الفكر الديني البربري**:

كان للبربر اتصال عظيم بمظاهر الطبيعة وبما فيها من عظمة كالأجرم العلوية والكواكب، كما أن الثور والكبش والتيس والأفعى هي رموز مؤهلة وكذلك بالنسبة للكهوف والمغارات وتحظى بمقام رفيع عندهم.

وكان البربر يعيشون على الزراعة وتربية الحيوانات لهذا كانت ديانتهم ديانة زراع ورعاة قبل كل شيء.[55]

وبناءا على هذا فإن النشاط هو اللبنة الأولى لظهور الفكر الديني في المغرب القديم أي عند البربر وهم السكان الأصليون في المنطقة ويمكن أن ندرج هذه الأصول في أربعة عناصر متكاملة فيما بينها محلية وخارجية يتصدرها المحلي، ثم التأثيرات المصرية وكذا الامتزاج السامي الكنعاني اليبي خلال الفترة ال البونية، إضافة إلى تأثيرات الديانة الإغريقية وحتى الرومانية.[56]

وبعد الدراسات الأثرية والتاريخية يذكر العلماء أن الأصول الباكرة للديانة البربرية المحلية تعود إلى العصر الحجري حيث عثر على كويرات حجرية مشذبة في موقع القطار بشرقي قفصة بتونس، يمك أن تكون قد أعدت للعبادة أو بتقرب بواسطتها البربر للآلهة.[57]

ومن خلال هذه الأدلة فإنه تبين اهتمام الإنسان المحلي للمغرب القديم بالجانب المعنوي وخصوصا أنه أصبح يدرك أن العالم المحيط به مليء بالأرواح ولابد أن يتقرب من الظواهر الطبيعية حتى يدفع ع نفسه الشر الذي يقف في طريقه وكذا محاولة ضمان المستقبل المجهول، فكانوا يرتدون الأقنعة ويتذكرون في أشكال حيوانات ويقومون بحركات ورقصات سحرية.[58]

ا - العبادة المحلية للمغرب القديم:

ا- 1- عبادة المياه:

تعتبر المياه مقدسة في المغرب القديم نظرا لطبيعة النشاط الممارس وكذلك فترات الجفاف المتكررة بطبيعة مناخ المنطقة مما أعطى المياه مكانة وقداسة.[59]

وعبر المغاربة القدماء على هذه القداسة بمعتقدات الاستدرار بطرق مختلفة، أما عن المنابع والآبار فهي مساك المقدس.[60]

وظلت هذه التقاليد قائمة في العهد الروماني ودليل ذلك ما وجده "Picard" في الحصن الروماني بموقع مسعد الثري castellum dimmidi وهي دمية تشخص صاحب الملعقة وأسطورته الشعبية التي تتعلق بطلب نزول المطر بمنطقة مسعد والأغواط والجزائر، وهو بئر في أسفله بناء خاص بالتعبد كما يوجد محراب خاص وهو ذا مدخل ضيق ومعزول، وعثر على إهداء إلى عدة آلهة منها اسكولاب esculape وهو الإله برأس كهنة المياه.[61]

ا-2- عبادة الشمس والقمر:

كانت عبادة الشمس والقمر منتشرة في بلاد المغرب القديم، وأشار إليها المؤرخ الإغريقي هيرودوت "... ما عدا قبائل السامون الذي يستقرون حول بحيرة تريتوي أي خليج السيرت الصغير" وقبائل الأترن الذين كانوا يلعنون الشمس التي تؤذيهم.[62]

وكان معظم الليبيون يعبدونها ويقدمون لها الأضاحي بطريقة وصفها المؤرخ هيرودوت، وهذا بهدف أبعاد الأرواح الشريرة ومباركة القطيع والتقرب والإشادة بالإله الشمس الذي يبعث الدفئ والحياة والحركة المرتبطة بفصول الزراعة والحصاد وتخصيب الأرض بأشعتها، فهي المقدس الذي نفخ الحياة في كل شيء.[63]

كما أشار إلى عبارة الشمس مؤرخين آخرون مثل بليني وديودور الصقلي، وفي القرن الـ 14 م أشار ابن خلدون إلى انتشار عبادة الشمس بين بعض القبائل البربرية، حيث استمرت عبادتها إلى جانب الديانات السماوية الأخرى.[64]

أما عن عبادة القمر ففي كتابات "ترتيليان" tertulien في القرن الـ 3م أشير إلى ثلاث آلهة قمرية منها فارسوتينية Varsutina المورية كان يعبدها الأفارقة.[65]

وقد كان للقمر مكانة خاصة في الطقوس التي تعتمد على السحر واستمرت حتى وقت متأخر.[66]

وقد استمرت عبادة الشمس عند المغاربة إلى وقت طويل على حد قول المؤرخين الذين جاءوا بعد هيرودوت ولإثبات هذا الموضوع يجب أن نتحدث عن الأدلة والشواهد عن أصول عبادتها، فعند المصريين كان رمز رأس كبش والثور وتعلوهما قرص الشمس فهذا يعكس الرأي أن هذه العبارة بتأثر من المصريين الذين عبدوا أمون على هذا الشكل.

وكذلك في ق 5 ق.م كتب هيرودوت أن المنطقة كانت مفتوحة على التأثيرات الخارجية وكانت الشمس أهم المعبودات لدى معظم الشعوب.[67]

وقد كان الإله أمون الإله الأعلى للمغاربة، وكانت عبادته منتشرة على نطاق واسع في كل أرجاء المغرب، حيث عثر على آثار ورسوم صخرية تمثل هذا على امتداد الأطلس الصحراوي والهوقار والتاسيلي وذكر غوستان مرسي G Mercier أن هذا الإله عبر في نوميديا كإله محلي أعلى واشتبه النصوص.

ويدعم أيضا هذا الرأي هنري ياسي (H Basserti) الذي يسري بأن أمون كان الإله الأكبر الذي لم يكن مجرد رمز ومظهر ديني.[68]

ولا يمكن الجزم أن عبادة أمون هي وافدة من مصر كما ذكر بعض المؤرخين أو العكس انتقلت من بلاد المغرب نظرا للجفاف الذي انتساب الصحراء وكان سببا في الانتقال إلى حوض النيل عن طريق الشعوب ذات اللون الأسمر (الأثيوبيون كما سماهم الإغريق)

وقد عثر على صلابة من فجر التاريخ (3500-3200) تظهر المصريين يجلبون من بلاد الليبيين نيرانا وكباشا وشجيرات زيتون، كما ظهرت التأثيرات المغربية في مصر على رأي "موري Morel منذ فترة مبكرة، حيث يذكر أن الإقليم الثاني قد تعرض للحكم الليبي، وكذلك الإقليم الثالث عرف بالإقليم الليبي وعبدت الآلهة "نت" "Neit" في الإقليمين الرابع والخامس وتدعى "الليبية" ويذكر أيضا أن طيبة بمصر عبدت الإله برأس كبش وهو معبود الواحات الغربية الليبية.[69]

وقد اعتمد العديد من المؤرخين إلى المكتشفات الأثرية كأدلة على عبادة الشمس فهي كثيرة من المواقع فوجدت على النصب النذرية والإهدائية وتوابيت القبور التي تحمل رمز قرص الشمس والقمر.[70]

ومهما يكن فان قله الوثائق وغموضها فان هذه العبادة خارجية نتيجة التأثيرات التي مست المنطقة وعلى هذا الأساس يرفض (ج) كامس الاستناد إلى قلة الشهادات وعدم دقتها وأنه لم يكن لهم إلا ديانات ومعتقدات بدائية مثلما يشير إليه بعض المؤرخين.[71]

وعلى العموم فإن المغاربة القدماء يمكن أن يكونوا قد مارسوا عبارة الشمس والقمر منذ أقدم العصور دون تأثير خارجي، وذلك من خلال ملاحظاتهم اليومية لمسيرة كوكب الشمس، ككل الشعوب القديمة، كما أن هيرودوت في كتاباته ربط بين الشمس والقمر من جهة ،والأسماء التي أعطاها الليبيون للشمس قبل

الإله الأكبر، الأعلى، الملك، السماء، روح الشمس، الشمس، الأقوى، وهذا دليل على معرفة السكان المحليين لنوع من التوحيد الكوكبي، نلمس في ذلك التأثيرات المصرية، لا سيما بعد حكم الملك أخناتون الذي نقل العبادة إلى تل العمارنة وكتب الكثير في وصف ومدح الإله "آتون رع" الذي يشير إلى عبادة الشمس.[72]

ا-3- عبادة الكهوف:

قدس السكان المحليين للمغرب القديم الكهوف والمغارات التي جعلوا منها مساكنا لهم، وكثيرا ما كانت تحمل في جدرانها رسوم حيوانية وآدمية، ويسهر الكهنة على تقديم الولاء لها والحفاظ عليها، ويمكن أن يكون اسم إفريقيا "لكامل القارة الذي ظهر في الفترة الرومانية يعود إلى اسم الإله المحلي للكهوف "إفري" هذا اعتمادا على الدراسة التي قدمها "س.قزيل" S/Gsell و Basset.[73]

وكانت الكهوف مخصصة للدفن كذلك، وقد أشار المؤرخ "هيرودوت" أنه كان من عادة المغاربة المحليين النوم على قبور الأشخاص الذين كانت لهم مكانة اجتماعية أثناء حياتهم كرؤساء القبائل والكهنة.[74]

ولا يستبعد أن فكرة بناء الأضرحة الضخمة والمعابد التي كانت قد شيدت للملوك والأمراء النوميد وتعود إلى تلك المحلات للعبادة والتقديس مثلا نجد (الضريح الموريتاني) بالقرب من تيبازة، والمدغاسن والصومعة وضريح دوقة.

ومن هذا نستنتج أن المغارات والكهوف كانت محل تقديس واتخذت أماكن للعبادة ويرجع ذلك إلى كونها مساكن الآلهة، ويقول القديس أغسطين أهم يعتقدون بقربهم إلى الله كلما غاصوا في باطن الأرض.[75]

ا-4- عبادة الملوك:

عرف بعض الملوك المغاربة بمكانتهم المتميزة من خلال النقوش والعمارة الجنائزية أو الكتابات المؤرخين، وتعود الوثائق الأولى حول ما عرف بعبادة الملوك عند السكان المحليين للمغرب القديم إلى القرن 3 ق.م، حيث عثر في قشية دوجة الثانية على نص إهدائي بالقرب من الضريح الذي شيد في السنة العاشرة من حكم الملك مسيبيسا، ابن الملك ماسينيسا وقد كتب بالبونية والليبية وهذا مقتطف منه "شيد مواطنوا دوقة هذا المعبد للملك ماسينيسا بن الملك غايا بن الشفط زلالسن، في العاشر لحكم مسينيبسا"[76]

ومن خلال هذا النص يرى (بيكار) و (غزال) أنه تم تأليه النوميديين للملك ماسينيسا وعلى العكس من ذلك يرى محمد الصغير غانم ومحمد فنطر أن لا شيء في النص يثبت ويؤكد عبادة النوميديين للملك (ماسينيسا) و لا يعطيه إلا لقب "ملك" حسب ما جاء في النصوص من عبارات بونية مثل (ه،م،م،ل،ك،ت) أي (الملك) أو المملكة اللوبية (ج،ل،د) بمعنى الحاكم الذي له صبغة عسكرية، أما مصطلح (ت،م،ق،د،ش) فهي تعني البناء أو المكان المقدس، وليس لها ارتباط شخصية (ماسينيسا) ويرى (غزال) أن ماسينيسا هو الذي انشأ هذا التقليد، وذلك بإعطاء نفسه الطابع الإلهي.[77]

ا-5- عبادة الأموات:

خص بعض الأشخاص الأموات منهم بمكانة متميزة عن الأحياء، ويتجلى ذلك من خلال الممارسات التي تحدث عنها المؤرخون القدماء، وكذلك من خلال النقوش والعمارة الجنائزية، حيث التصقت بعض الصفات بالأموات والأماكن المدفونون بها مثل القداسة، والقدرة على النفع والضرر، وتعكس تلك الممارسات وع من الخضوع وروابط الصلة بهم حتى عملية الدف التي ترتبط بطقوس فيها تقدير كبير للأموات، وتحميهم من كل الأخطار.[78]

ويذكر هيرودوت عن بعض الممارسات وعن أن المغاربة القدماء كانوا يقسمون برجال عرفوا بكونهم الأكثر عدالة وهم الأفضل ويلامسون قبورهم، كما كانوا يقصدون قبور أسلافهم وينامون عليها.[79]

ويعتبر المؤرخون أن قبور المنطقة الصحراوية المنتشرة في فزان إلى موريتانيا تعود إلى فجر التاريخ لاحتوائها على معبد صغير مثل التي وجدت في قزال التي تمثل قبر ومعبد في نفس الوقت.[80]

كذلك الشأن بالنسبة لقبور التيميلوس ذات القمم، فقد كانت بدورها معابد تتم فيها ممارسة طقس الرؤيا والتنبؤ بالمستقبل.

ب- الطقوس الجنائزية:

تعتبر الطقوس الجنائزية مصدرا أساسيا لدراسة الجانب الديني بالمغرب القديم لانعدام المصادر الأدبية المتعلقة بفترة ما قبل التاريخ وحتى فجر التاريخ.[81]

وهذا ما يجعل الاعتماد الكلي على المصادر المادية في دراسة المعتقدات في المغرب قد يؤدي إلى الابتعاد عن الحقيقة وإعطاء صورة مغايرة ويقصد بالطقوس الجنائزية كل ما يدخل ضمن دائرة التعامل مع الأموات من حيث طرق الدفن وكيفياته ووضعياته، إلى جانب الأثاث الجنائزي، وتعود هذه الطقوس في المغرب إلى العصر الحجري الحديث، ويتضح من خلال دراسة بقايا المدافن أن إنسان المغرب القديم قد مارس الدفن في أنواع عديدة من القبور، كالكهوف الطبيعية والاصطناعية، وقبور التيميلوس، وكذلك البازيناسي والشوشة التي تعود إلى فجر التاريخ، وهي تطور لنماذج من القبور الليبية.[82]

بالإضافة إلى قبور الدولمن والحوانيت التي عرفها المغاربة القدماء عن طريق التواصل الخارجي.[83]

وقد كان المغاربة القدماء يوجهون جثث موتاهم توجيها معينا وفقا لطقوس خاصة، ويظهر هذا التوجه جليا في مقابر كهوف "لالة مغنية" بالقرب من "المويلح" بالغرب الجزائري، حيث وجهت رؤوس الأموات نحو الغرب، وقد مددت الجثث في حفر الدفن على الجانب الأيمن وطويت أرجل الجثة، وتوضع صخور مبلطة تحمي رؤوس وصدور الجثث، ويلاحظ على العموم بأن الجثث كانت في غالب الأحيان وضعيات في الحفرة بشكل الجنين، وفي كثير من الأحيان الركبتان لا تلامس البطن واليدان لا تلامس الوجه.[84]

ب -1- وضعيات الدفن:

كشف الأثريون في الكهوف والمدافن أنواع مختلفة للعظام البشرية، كالدفن الفردي والجماعي ووضعيات دفن مختلفة ممدة ومطوية ووضعية الجلوس إلى جانب خلط العظام والدفن الثانوي، أما اتجاه وجه الميت فقد كان يوجه نحو الشرق كما في قبور "الركينة" بالقرب من قالمة.[85]

وفي القرن5ق.م يخبرنا هيرودوت أن الناموس كانوا يجتهدون في جعل المحتضري في وضعية الجلوس ويمنعونهم من الموت وهم مستلقون على ظهورهم كي يبقى في وضعية الجلوس ويدفن في تلك الوضعية.[86]

وعلى عكس هذا فقد عثر بعض الباحثين على مدافن عديدة تم فيها خلط العظام ونثرها، ويرجع هذا كل من "بيكار، و"شارل أندري جوليا" أن الأحياء يخافون من عودة الأرواح إلى الأموات وبالتالي تقوم بإيذائهم وهذا النثر يضمن عدم عودة الروح إلى الجثة.

أما الدفن الجماعي الأسري، فهو دليل على عدم انقطاع الصلة بعد الموت وتبقى الروابط الاجتماعية والأسرية التي ينتمي إليها حتى في العالم الآخر.[87]

ومن الممارسات الشائعة عند المغاربة القدماء هي تلوين الجثث باللون الأحمر، وتعود هذه الطقوس إلى فترة ما قبل التاريخ، ويذكر ذلك هيرودوت واستمرت هذه العادة خلال العهد البوني وحتى العهد الروماني.[88]

ويرى "كامس" أن اللون الأحمر الذي تطلى به الجثة يدل على استمرار سريان الدم فيها، وهو يعوض الدم الحقيقي في اعتقادهم والهدف منه إعادة القوة للميت.[89]

أما (س حزبل) أنه نوع من الزاد يتركه الأحياء للأموات، ويذهب العديد من الباحثين أنه نوع من الممارسة لتقديس الأحياء للأموات، ومن الممكن أن يكون اعتقاد في نوع من الحياة الأبديه، ومهما كانت الآراء فإن الطقوس واستمرارها دلالة على أصلها المحلي.[90]

الهوامش:

1- لحسن رابح، أضرحة ملوك النوميد والمور "دراسة أثرية وتاريخية مقارنة لأهم الأضرحة الملكية منذ القرن الرابع .ق .م إلى غاية عشية الفتح الإسلامي في القرن الـ4م، الجزائر دار هومة 2007، ص41.

2- الميلي مبارك، المرجع السابق، ص210.

3- لحسن رابح، المرجع السابق، ص43.

4- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص121

5- برنيان أندريه ونوشي أندري ولكوست إيف، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص70.

6- شنيتي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية، المرجع السابق، ص 259-260

7- بومعقل الحاج أحمد، المرجع السابق، ص121.

8- برنيان اندريه وآخرون ،المرجع السابق، ص70.

9- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص121.

10- الحجازي عبد العزيز عبد الفتاح، روما وإفريقيا من نهاية الحرب البونية الثانية إلى عصر الامبراطور أغسطس، ط1، القاهرة، مكتبة الأجلو مصرية، 2007 ص74.

11- فرحاتي فتيحة، وميديا من حكم الملك حايا إلى بداية الاحتلال الروماني، 213 ق.م، 46 ق.م، الجزائر، منشورات ابييك، 2007 ص295.

12- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص121-122.

13- شنيتي محمد البشري، المرجع السابق، ص258.

14- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص122.

15- لحسن رابح، المرجع السابق، ص 90-102

16- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص303.

17- لحسن رابح، المرجع السابق، ص205-206

18- لحس رابح، المرجع نفسه، ص217-218

19- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص122-123

20- الحجازي عبد العزيز عبد الفتاح، المرجع السابق، ص74

21- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص304

22- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص123

23- بورية الشاذلي والطاهر محمد، المرجع السابق، ص235

24- الحجازي عبد العزيز عبد الفتاح، المرجع السابق، ص74

° ملك: والتي تعني التضحية التي عوضت الطفل حسب ملاحظات القديس أوغستي، فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص304.

25- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص304-305

26 - LANCEL SERGE ALJERIE ANTIQUE DE MASSINISSA A SAINT AUGSTIN , PARIS, EDITION MENJES, 2003, p53

27- شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص159.

28- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص122

29- نفسه، ص127-129

30- يولم دنيز، الحضارات الإفريقية، تر: نسيم نصر، ط2، بيروت، باريس، منشورات عويدات، 1982، ص54

31- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص124

32- لحسن رابح، المرجع السابق، ص258

33- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص124

34 - Gsell (S), Hestoire anatenne de l'afrique du nord, T4, p456

35- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص125

36- لحسن رابح، المرجع السابق، ص263

° يعتبر اللون الأحمر مقوي سحري يرمز إلى الحياة والدم ويمنع الأرواح الشريرة ولوحظ استعماله في العهد القرطاجي واستمر إلى غاية العهد الروماني، لحسن رابح، المرجع نفسه، ص269.

37 -GSELL, Opcit, p445-444

38- لحسن رابح المرجع السابق، ص214

39- لحسن رابح المرجع نفسه، ص266

40 -GSELL, Opcit, p456

41- بورنية الشاذلي، محمد الطاهر، المرجع السابق ص213.

42- لحسن رابح، المرجع السابق، ص212

43 - Gsell S, op-cit, p135

44 - Gsell S, op-cit, p456-455

45 - GSELL S, Histoire anatenne de l'afrique du nord, T6, p269

46- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص311-313

47- بومعقل الحاج أحمد مولاي المرجع السابق، ص126

48- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص311

49- غانم محمد الصغير، المملكة الوميدية والحضارة البونية، المرجع السابق، ص112

50- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص313.

51- غام محمد الصغير، المرجع السابق، ص117.

52- فرحاتي فتيحة المرجع السابق، ص333

53- غانم محمد الصغير، المرجع السابق، ص160-161

54 - Lancel Serge, opcit, p54

55- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج1، ط4، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص44-55

56- الصغير غانم محمد، الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني، دار الهدى للطباعة، الجزائر، ص11.

57- الناضوري رشيد، المغرب الكبير، ج1، الدار القومية، 1966، ص104

58 - Fantar (MH) introduction a la decoverte archeologique de cartage, archeologie vivante, vol n°1-2

59 - Gsell S, Herodote textes relatif a l'histoire de l'afrique du nord, Alger, 1919, p19

60 - Picard (G CH), les religions de l'Afrique antique, libiriplon , paris, 1954, p4

61 - Decret et fantar (M H), l'afrique du nord dans l'antiquité des origines aux 5eme, Paris, 1981, p247

62 - Picard (G ch) , Ibid, p21

63- حسن نعيمة، موسوعة الميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994، ص24

64- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج6، دار الكتاب اللبناني، 1968، ص185

65 - Camps (G) , Berberes aux magres de l'histoire, ed de hesperides, 1980, p2000.

66 - Gsell (S), H A A N , T1

67- الصغير غانم محمد، المرجع السابق، ص21

68- حارش محمد الهادي، دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، دار الهومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001، ص13.

69 - Lenormant (F), Histoire ancienne de l'orient jusqu(aux guerres mediques, edition Alevy, Paris 1887, p1100

70 - Camps (G) , Massinissa ou les buts de l'histoire , libyca, T VIII, 1960, p23

71 - Camps (G) , Berberes aux magres de l'histoire, p202

72 - Leglay (M) , Saturne africain , T3

73 - Gsell (S), H A A N, it, p256

74 - Herodote, 4, p172

75- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص24

76 - Picard (G CH), op cit, p17

77 - Gsell (S), H A A N, to 6, p129-130

78- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص38

79 - Camps (G), Massinissa, p20

81- محمد الصغير غانم، التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، الجزائر 1981، ص7

82- شارل أدري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ص7.

83- محمد الصغير غانم، نفس المرجع السابق، ص8

84 - Ballon (L), Algérie prehistorique, ed ars et meters graphique, paris, 1958, p96-97 et 130

85 - Faid herbe, recherches autropologique sur les tombeaux de roknia, B A H, 1868, p39

86 - Herodote, IV, 190

87-Camps (G), Monumments et sites funéraires, protohistoriques, ed arts et mitiers graphiques, paris 1961, p436.

88 - Ibid, p522.

89 - Picard (G Ch), op cit, p18

90 - Gsell (S), H A A N, I, p272